

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد،
وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه ..

أما بعد : فهذه الصحائف التي بين يديك - أخي القارئ -
- تلقى شعاعاً من ضوء على أحد عمالقة الفكر والتجديد في
تراثنا الإسلامي، إنها عبقرية فذة، أنبتتها تربة الحضارة
الإسلامية الخصبة، التي طالما هيأت لأبناء الفقراء والكادحين
أن يرتقوا شوامخ القمم بمواهبهم وكفاحهم، وأن يفرضوا
أنفسهم على الزمن، ويصغى لهم سمع التاريخ .

فمن كان يظن أن ذلك الصبي الذي كان يكسب أبوه
عيشه من مغزله، والذي لم يدع له من المال ما يكفيه مدة
الصبا، حتى اضطر أن يدخل هو وشقيقه إحدى المدارس التي
تتكفل بإيواء طلابها وإطعامهم والنفقة عليهم، من كان يظن
أن ذلك الغلام سيصبح يوماً حجة الإسلام، وعلم الأعلام، وأن
الشرق والغرب سينتفعان به ويخلدان أثره؟

إنه الغزالي^(١)، الذي أثر في الفكر الإسلامي، وفي الحياة الإسلامية، تأثيراً منقطع النظير، من خلال عطائه الفكري، وعطائه الروحي، ومن خلال قصة كفاحه في سبيل الوصول إلى الحقيقة واليقين، والسعادة الروحية، التي هي عنده غاية الغايات.

أجل إنه الغزالي، الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، في حياته وبعد وفاته، واختلف فيه السابقون، كما اختلف فيه اللاحقون والمعاصرون.

فمن مبالغ في الإعجاب به، والثناء عليه.. ومن مسرف في الاتهام له، والتحامل عليه.

ومن معتدل بين هؤلاء وهؤلاء، يعطي الرجل حقه، ويمدحه بما هو أهله، وينقده فيما يرى أنه قصر أو خطأ فيه، والعصمة لمن عصمه الله.

وجدنا من السابقين من يعظم كتبه، حتى قال من قال:
كاد (الإحياء) يكون قرآناً!

(١) الغزالي - بتشديد الزاي - هو المشهور، فهو منسوب إلى حرفة (الغزل) وهي مهنة أبيه، على عادة أهل خراسان، حيث يقولون: العطارى والخبازى نسبة إلى العطار والخباز، وقيل: بتخفيف الزاي، نسبة إلى (غزالة) قرية من قرى طوس.

ووجدنا فى مقابله من يقول : إنه إحياء لدينه هو، وليس
إحياء لدين المسلمين!

فلا عجب، أن رأينا من تقرب إلى الله بإحراق كتبه،
ومن تقرب إلى الله بنشرها وتعميمها!

ولا غرو، فالرجل خاصم فئات كثيرة، ألها جميعاً
ضده، وهاج عداوتها له .

فقد هاجم الفلاسفة، وفضح الباطنية، وندد بالحشوية،
وعاب المقلدين وانتقد المتكلمين، ولام الفقهاء، وحمل على
العلماء الذين يلتمسون الدنيا بالدين، وسماهم (علماء
الدنيا)، كما حمل على علماء (الظاهر) من الحرفيين الذين
حجبهم القشر عن اللباب، وكشف اللثام عن كثير من ظواهر
التدين المغشوش لدى طوائف شتى من المجتمع .

كما كانت عنده - باعتباره بشراً غير معصوم - نقاط
ضعف، أخذها عليه منتقدوه، لعل أبرزها قلة محصوله فى
علم الحديث، وهو ما اعترف به، وتسليمه الكامل بمناهج
الصوفية وأفكارهم، دون أن يحاكمها إلى قانون الفقه الذى
برع فيه وفى أصوله .

وقديماً قالوا: من أَلَفَ فقد استهدف^(١)، فكيف برجل كالغزالي، كان غزير التأليف، ثر العطاء، خصب الإنتاج، متنوع القدرات، متعدد المجالات، مع حرية في التفكير، وجراءة في التعبير؟

ثم هو يتعرض لتحقيق مسائل شائكة، والبحث في قضايا عويصة، هي مزلة أقدام، ومضلة أفهام، اعتركت فيها العقول، أو اضطرت فيها النقول، واختصمت فيها الفرق والمذاهب، وتباينت فيها الاتجاهات والمشارب، وغرق في بحرهما الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]

ولا غرو أن تباينت فيه الأقوال، ما بين معظم له كل التعظيم، ومهاجم له أعنف الهجوم، شأن كثير من العظماء في التاريخ.

هذا عن المتقدمين.

وأما المعاصرون فهم مختلفون فيه أيضاً، تبعاً للمدارس الدينية والتيارات الفكرية التي ينتمون إليها.

(١) استهدف: أي صار هدفاً لغيره، فالسين والتاء هنا للصيرورة، والفعل لازم، وليس متعدياً، كما يستعمله كثيرون في عصرنا، يقولون: استهدف كذا، يعنون: قصد إليه، وهو خطأ شائع.

فالمدرسة الأشعرية التقليدية التي ينتمى إليها معظم الأقطار الإسلامية تعظمه غاية التعظيم .

وكذلك المدرسة الصوفية بمختلف طرقها تضعه في مرتبة الصديقين .

وأما المدرسة السلفية التي تخاصم الأشعرية، وتعادى الصوفية، فلها موقف آخر من الغزالي، فمنهم من يعترف بفضلها، وينقده برفق واعتدال، ومنهم من يرسل عليه وعلى كتبه كلها شواظاً من نار .

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على عظمة الرجل، وإبداعه، وخصوبة إنتاجه، وسعة آفاقه، وتنوع عطائه، شأن كثير من العظماء الذين يجنح كثير من الناس فيهم، إما إلى إفراط، وإما إلى تفريط .

ورضى الله عن علي بن أبي طالب الذي قال عن نفسه :
هلك فيّ رجالان : محب مغال، ومبغض ضال!

وعلى كل حال، فإننا نجد المعجبين به، والمثنيين عليه، أكثر عدداً وأعز نفراً من الطاعنين عليه .

قال فيه الإمام محمد مصطفى المراعى شيخ الأزهر المعروف : إنه جملة رجال فى رجل واحد!

وذكره الإمام المودودي ضمن الأعلام المعدودين الذين كان لهم دور بارز في إحياء الدين وتجديده، وعدد مجالات تجديده، ونوه بأثره في كل منها.

ويقول العلامة أبو الحسن الندوي: الغزالي من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح والتجديد، الذين لهم فضل كبير في بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامي، ومهما قيل فيه وقيل عنه، فإن إخلاصه أسمى من أن يشك فيه.

ورفعه شيخنا الدكتور عبد الحلیم محمود إلى الذروة في العطاء الفكري وفي الارتقاء الروحي، معا.

ويراه العلامة أبو زهرة: في أصول الفقه فيلسوفاً بين الفقهاء، وفي فروعه، محققاً يتبع الدليل، ولا يتبع الأشخاص، وهو في الفقه أبين أثراً منه في الكلام والفلسفة.

أما الأستاذ عباس العقاد، فيعتبره - قبل أن يكون فقيهاً ومتكلماً وصوفياً - الفيلسوف الذي اكتملت له كل أدوات الفلسفة، من القدرة على التجرد، والقدرة على التجريد.

ويقول عنه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: إنه مؤسس علم النفس الإسلامي.

ويصفه الدكتور زكى نجيب محمود بأنه (العماق العظيم)، ويلخص موقفه بعد فترة الشك في هذه العبارة: أنا أريد . . . إذن أنا إنسان!

والدكتور سليمان دنيا ينعته بأنه الشخصية الفذة التي حيرت الكاتبين والمحللين .

والدكتور أبو ريذة يقول عنه: من أكبر مفكرى الإسلام، ولعله أقربهم إلى الابتكار، وهو بطل من أبطال الإسلام الخالدين، الذين ناضلوا عنه . .

والدكتور أبو ريان يرى أنه الشخصية التي هيأتها الأقدار للقيام بدور المواجهة الجذرية والحاسمة لتأمر الباطنية، ودعاوى الفلاسفة وأصحاب المناهج العقلية المعارضة للعقيدة .

هذا إلى جوار ما قاله عنه الأجانب والمستشرقون .

ومهما يكن من الخلاف فى منزلة الغزالي وأثره فى الأمة الإسلامية بالإيجاب أو بالسلب، فإن التاريخ يذكر أن جمهور المسلمين قد عرفوه بأنه (حجة الإسلام) و(مجدد القرن الخامس) و(محيى علوم الدين) .

وإن المعاصرين - مهما اختلفوا فى تقويمه - فهو عندهم جميعاً فى الذروة من أعلام الفكر فى الإسلام، وأعلام الفكر فى العالم، وأعلام الباحثين عن الحق .

وما كتب عنه فى الشرق والغرب، بالعربية وغيرها، من
المسلمين وغير المسلمين شىء يصعب حصره .

وستظل الأعلام تكتب، والمكاتب تنشر، والعالم يقرأ
عن الغزالى .

ولن تتوقف الندوات ولا المؤتمرات ولا المهرجانات التى
تقام لإحياء ذكرى الغزالى .

رحم الله إمامنا الغزالى، وجزاه عن دينه وأمته خيراً،
وآجره على ما تحزى فيه الحق فأخطأه . آمين .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد

فلم يكن فى نيتى - فى هذه المرحلة على الأقل - أن أكتب عن الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه، لا لشيء، إلا لأن الرجل غنى بما كتب عنه فى شتى الاختصاصات، وذلك لتعدد جوانب النبوغ فى شخصيته الفارعة، وتنوع المواهب والقدرات التى آتاه الله إياها، وسعة الآفاق والمجالات التى تناولها علماً وعملاً ودعوة وتعليماً.

ومن عادتى ألا أكتب فى الموضوعات التى أشبعت بحثاً، إلا أن يكون عندى شيء يقال، غير ما قاله من سبقنى، تكميلاً لنقص، أو تصحيحاً لمفهوم، أو توضيحاً لغامض، أو تفصيلاً لمجمل، أو جمعاً لمتفرق، أو تقريباً لبعيد.. أو نحو ذلك مما تصنف له المصنفات. وإلا كان التصنيف تكراراً

محضاً، لا يضيف شيئاً جديداً إلى دنيا العلم والفكر، ولا يستحق الورق الذي يطبع به .

وليس من شيمتى -- والله الحمد على ذلك -- أن أكرر غيرى ولا نفسى فيما أكتب .

من هنا لم أتجه إلى الكتابة عن إمامنا الغزالي، رغم تعرفى عليه منذ عهد مبكر من حياتى، عن طريق كتابين له هما: (إحياء علوم الدين) و(منهاج العابدين) .

ولكن الله عز وجل إذا قدر أمراً هياً له أسبابه، فقد أرسلت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسسكو) كتاباً إلى الجامعات فى البلاد الإسلامية، تحثها فيه على الاحتفال بمرور تسعة قرون هجرية على وفاة الإمام الغزالي سنة ٥٠٥هـ .

وكانت جامعة قطر ممن استجاب لهذا النداء الكريم، واقترحت كلية الشريعة أن تعقد بعض الندوات، وتلقى بعض المحاضرات، ويصدر كتاب تذكارى عن الغزالي بهذه المناسبة . وألفت الجامعة لجنة لإعداد هذا الكتاب، وطلبت من عدد من الأساتذة تناول جوانب من حياة الغزالي، كل فى اختصاصه .

وطلبت منى أن أكتب مقدمة مناسبة للكتاب كله،
تحمل نظرة عامة لعبقرية الغزالي، وشخصيته الرحبة.

وبدأت أكتب هذه المقدمة، محاولاً أن أجيب فيها عن
سؤال أساسى، هو: لماذا سُمى المسلمون الغزالي (حجة
الإسلام)؟ ولماذا أجمعوا - كما ذكر السيوطى - على اعتباره
(مجدد المائة الخامسة)؟ وما الدور المهم الذى قام به حتى تبوأ
هذه المكانة فى الثقافة الإسلامية، وفى الحياة الإسلامية؟.

كان فى تقديرى أن أكتب فى ذلك نحو عشر
صفحات، أو بضع عشرة صفحة على الأكثر.

فلما شرعت أكتب إذا بالموضوع يتسع أمامى، وإذا
الغزالي يفرض نفسه على بقوة، وكأنه كان يعاتبني من عالم
الروح كيف أكتب عنه صفحات معدودة، وأنا الذى تتلمذت
عليه، وغرقت من بحره، منذ عهد الصبا؟!.

لهذا تركت القلم يكتب ما يسر الله له، وانتقل الأمر من
مجرد مقدمة للكتاب التذكارى إلى موضوع كامل يستفتح به
الكتاب، بل إنى وجدت البحث قد طال بأكثر مما ينبغى أن
ينشر عن موضوع فى كتاب مشترك.. فأخرت جزءاً منه،
ونشرته فى (حولية كلية الشريعة).

والآن أضْم هذا وذاك لأجعل منهما كتاباً عن الغزالي
رحمه الله .

وبرغم أنني تتلمذت أول ما تتلمذت على الإمام
الغزالي ، واستفدت من علمه ، ونهلت من معينه ، فقد تعلمت
منه أيضاً أن الرجال يعرفون بالحق ، وليس الحق يعرف بالرجال ،
وأن كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه ، وليس في العلم معصوم
بعد رسول الله ﷺ .

فلا غرو أن نناقشه أو نخالفه في بعض القضايا ، كما
يناقش التلميذ أستاذه ويخالفه ، وكما خالف هو شيوخه
وأئمته واستدرك عليهم ، محتفظين له بما ينبغي من إجلال
وتقدير يليق بمنزلته في الفكر ، وإمامته في الدين ، معتقدين
أنه كان مخلصاً في طلب الحق ، وفي ابتغاء رضوان الله ، وإن
أخطأ في بعض الأحيان .

ولقد أزعجني في هذا المقام صنفان متقابلان :

١ - صنف يقدر أبا حامد الغزالي ، ويرفعه إلى مكانة
تكاد تشبه العصمة ، ولا يقبل أن ينقد في فكره ، أو يخطأ في
قول ، أو يلام في سلوك ، بعد أن ثبتت له الإمامة والولاية ،
وعرفه الخاص والعام بأنه (حجة الإسلام) !

ونسى هؤلاء أن الغزالي بشر يصيب ويخطئ، ووقوع الخطأ منه لا يقدرح في إمامته ولا ولايته، ولا ينقص من قدره في العلم أو الدين، وهو معذور فيما أخطأ فيه، بل مأجور إن شاء الله؛ لأنه اجتهد وتحرى ما استطاع. وكل عالم مسلم اجتهد في الوصول إلى الحق لم يحرم من الأجر، سواء كان ذلك في المسائل العملية الفروعية، أم المسائل النظرية الأصولية، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

٢ - والصنف الآخر، يتحامل على الغزالي، ويتناول على مقامه، ولا يعترف بما قدم للعلم والفكر والدين، ويكاد يجرده من كل فضيلة، فمنهم من يحمله تبعة انتشار التصوف المنحرف، وثنان يجعل في رقبته ذبوع الأحاديث الموضوعية والضعيفة، وآخر يحمله مسؤولية التخلف الحضارى للأمة الإسلامية كلها!، ومنهم من يجعل له وجهين: وجها للخاصة ووجها للعامة...

والإنصاف يقتضينا أن نقوم الرجل بمجموع عطائه، ومجموع حسناته ومزاياه، وما أكثرها!

ولا يليق بنا أن نهدر فضائله الجمّة، وعطاءه الضخم، لأمر كثيراً ما يختلف الناس في تقديرها وتقويمها، حتى ما اعتبر خطأ صريحاً منها، لا يجعلنا ننسى فضل أبي حامد وقدره.

وعيبنا في كثير من فضايانا - فكرية أو عملية -
الانقسام بين طرفي الإفراط والتفريط .

والمنهج السليم هو المنهج الوسط، منهج العادل
والاعتدال، في النظر إلى الأشياء والمواقف والأشخاص
والأعمال .

وهو ما حاولت أن أسلكه في دراستي هذه لشخصية
هذا العملاق، الذي ملأ الدنيا، وشغل الناس .

فعسى أن يكون في هذه الصفحات ما يفيد الدارسين،
ويلقى شعاعاً من ضوء على هذه الحياة الحافلة بالعلم والعمل
والجهاد الروحي والعملى والبحث عن الحق واليقين .

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً
﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

يوسف القرضاوى

الدوحة

فى ٩ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨ هـ

٣٠ / ١١ / ١٩٨٧ م